مبشرات من الواقع

وإذا تركنا التاريخ وما يحمله من مبشرات بالقوة الذاتية للإسلام ، والقوى المكنونة فى كيان هذه الأمة ، والتى تبرز عند الشدائد ، وعندما يوجد من يفجرها . . ونظرنا إلى واقع الأمة فى هذا العصر ، وجدنا مبشرات أخرى كثيرة ، جعلت هذه الأمة تثبت فى وجه الأعاصير ، ولا تذوب فى غيرها ، كما يذوب الملح فى الماء ، كما كان يراد لها ، بل جاهدت وقاتلت حتى تحررت من مستعمريها ، وعادت تشعر بكينونتها ، وتكتشف ذاتها من جديد ، رغم ما وضع لها من أغلال تكبلها ، وما صنع لها من أقفاص حديدية أو ذهبية تحبس داخلها .

* *

● أمراض الواقع وآفاته :

لا أستطيع أن أجحد ما يمور به واقع الأمة من أمراض وآفات عقلية ودينية وخلقية وعملية ، شكا منها الدعاة والمربون والمصلحون، ولا يزالون يشكون .

فقد ضعف الدين بين الغالى فيه والجافى عنه ، كما قال الإمام الحسن البصرى ، أو بين (جامد وجاحد) ، كما قال أمير البيان

شكيب أرسلان . ذاك يصد الناس عن الإسلام بجموده ، والآخر يفتنهم عنه بجحوده .

وضعف التوحيد الأصيل - الذى هو جوهر الإسلام وروح الوجود الإسلامى كله - بين خرافات العرّافين ، وأباطيل الدجالين بين شرك العوام الذين يكادون يعبدون قبور الأموات ، وشرك الخواص الذين يكادون يعبدون قصور الأحياء !

وضعف الجانب الربانى فى الحياة الإسلامية ، حين وجدنا فى المسلمين من يضيع الصلوات ، ويتبع الشهوات ، وحين قال : ﴿ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . . . . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِم يُحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وظهر التصوف المنحرف ، والتصوف المحترف ، وقل التصوف الحقيقى المعبر عن روحانية الإسلام ووسطيته ، والذى عرّفوه بأنه : الصدق مع الحق ، والخُلُق مع الخَلق (٢) . وغلبت (رسوم) التصوف على (حقائقه) من ذكر باللسان من نوع ما قالت رابعة :

---

(١) المؤمنون : ١ - ٩

(٢) قد بدأنا بحمد الله وتوفيقه فى كتابة سلسلة عن التصوف الملتزم أو (فقه السلوك فى ضوء القرآن والسُّنَّة) ظهر منها ثلاثة أجزاء : الحياة الربانية والعلم . . النية والإخلاص . . التوكل . . وأسأل الله العون على إتمامها .

استغفار يحتاج إلى استغفار منه . ومن أوراد موضوعة ، وحركات مصنوعة ، لا ترقق القلب ، ولا تذكر بالرب ، ولا بالدار الآخرة .

وضعفت الآداب والتقاليد الإسلامية الأصيلة فى حياتنا الاجتماعية، وغلب على الكثيرين نوعان من التقاليد المخالفة لحقائق الإسلام : تقاليد موروثة من رواسب عصور الجمود والتقليد والتخلف ، ألصقت بالإسلام ، وليست منه فى كثير ولا قليل ، وتقاليد وافدة ، جاءت بها الحضارة الغربية الغازية ، بما غلب عليها من مادية الفكر ، وعلمانية التوجه ، ونفعية السلوك ، كان لها أثرها فى إشاعة التحلل ، وترسيخ الفردية والأنانية .

وأبرز ما رأينا ذلك فى (قضية المرأة) فوجدنا من تغطى وجهها حتى لا يرى منه شىء ، وقد تسمح - أو يسمح لها - بظهور عينيها أو إحداهما ! ومن تخرج إلى الطريق مكشوفة الذراعين والساقين والنحر ، من « الكاسيات العاريات المميلات المائلات » . ووجدنا من يحرم الخاطب من رؤية مخطوبته - وهو مأمور بها شرعًا - ولا يراها إلا ليلة زفافه بها ، وهى تحرم من رؤيته كذلك . . ومن يترك له الحبل على الغارب ، ليتأبط ذراعها ، ويذهب بها إلى حيث يشاء فى المسارح والسينمات أو المتنزهات والخلوات !

وضعف العقل الإسلامى ، فلم يعد يفكر ويبتكر ، ويضيف الجديد إلى الحضارة ، ويعدل القديم منها ، بل غدا عالة على غيره ، سواء

كان هذا الغير (المقدَّسين فى التراث) أم كان (المقدسين فى الغرب) . وطغى الجمود والتحجر على جنبات الحياة ، فغاب النظر فى العقيدة ، والاجتهاد فى الفقه ، والإبداع فى الأدب ، والابتكار فى الصناعة ، وذاعت كلمتان خطيرتان كان لهما تأثيرهما فى الحياة العقلية الإسلامية ، الأولى : ما ترك الأول للآخر شيئًا ! والثانية : ليس فى الإمكان أبدع مما كان !

وانتشرت دعوى إغلاق باب الاجتهاد ! ولا يُدرى : من أغلقه ؟ ومن يملك إغلاق باب فتحه الله تعالى ورسوله ﷺ !

ومن هنا تأخرت الأمة الإسلامية ، التى كانت الأمة الأولى ما يقارب الألف عام ، وأضحت فى مؤخرة القافلة بعد أن كانت فى مقدمتها ، فكل أقطارها داخل فى مسمى (البلاد النامية) أو (العالم الثالث) ، وبعضها لو كان هناك عالم رابع لنسبوا إليه ، لما يعانون من شدة التخلف والفقر والمرض والجهل والأمية .

وضعف الخلق الإسلامى الأصيل ، بغياب (شُعب الإيمان) التى بين لنا الرسول الكريم أنها (بضع وسبعون شعبة أعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى من الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) ، وشاعت أخلاق النفاق فى مجتمعاتنا ، فوجدنا من « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . وانتشر الترف المدمر فى طبقة عاطلة يسر لها كل شىء ، والبؤس القاتل فى طبقات كادحة تتعب وتلهث ، ولا تكاد

تجد شيئًا ، وانقلبت القيم الاجتماعية الإسلامية بظهور الغنى بغير جهد ، وظهور ملوك البترول ، ولصوص الانفتاح ، وأصبحت الصورة الكاريكاتورية للمسلم : عربى فى خيمة ، وبجواره بئر بترول ، وفتاة جميلة !

وكثر الظلم فى العالم الإسلامى : ظلم الحكام المحكومين ، وظلم الأغنياء الفقراء ، وظلم الأقوياء الضعفاء ، وظلم أرباب العمل العمال ، وظلم الرجال النساء ، والظلم لا تقوم عليه دولة ، ولا تنهض به أمة .

وضعفت الشورى - بل ربما غابت تمامًا - فى حياة المسلمين السياسية ، وحكم الناس فرعون وهامان وقارون ، بالحديد والنار تارة ، وبالغش والتزوير طورًا ، ولم يعد أئمة المسلمين خيارهم « الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم (أى تدعون لهم) ويصلون عليكم » ، بل كل متكبر جبار ، مطبوع على قلبه ، لا يخاف الله ولا يرحم الناس ، وبعضهم مطبوع على عقله كذلك ، فلا هو يفقه فى الدين ، ولا هو يعقل فى الدنيا ، ومع هذا إذا استفتى الناس فى اختياره حصل على « التسعات » الأربع أو الخمس (٩٩٩ و ٩٩٪) التى أمست مثار سخرية العالم ، وبات الحاكم فى البلاد العربية لا ينزعه عن كرسيه إلا الموت أو الاغتيال أو الانقلاب عليه !

* *

● الواقع المريض لا يستمر :

ولكن هذا الواقع الذى لا ينكر لم يترك يؤثر فى المسلمين دون مقاومة ، فهذا مناف لطبيعة الحياة الإسلامية ، وطبيعة الرسالة الإسلامية ، وطبيعة الأمة الإسلامية ، التى لا تجتمع على ضلالة ، ولا تزال فيها طائفة قائمة على أمر الله ، ممن يهدون بالحق وبه يعدلون . ولا يزال يبعث الله فيها أو يبعث لها ما بين قرن وآخر من يجدد لها دينها . وهو ما أثبته التاريخ المقروء ، كما أثبته الواقع المستقرأ .

* * *

● بين الأمس واليوم :

ومن قارن بين حال الأمة منذ قرن مضى ، وحالها اليوم ، بل من استقرأ حالها منذ خمسين سنة ، أو ثلاثين سنة ، وتأمل حالها فى هذين العقدين من الزمان ، سيجد أن أوضاعها تغيرت - إلى حد كبير - إلى ما هو أحسن وأمثل . وهذا أمر يلاحظه ويشهد به كل مراقب يقظ للأحداث ، فى كل جانب من جوانب الحياة ، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات ، الفكرية والأخلاقية والسلوكية .

وأكتفى هنا بشهادة رجل غربى مثقف ، اهتدى إلى الإسلام عن بصيرة ، وآمن به عن بينة ، وهو الدكتور : مراد هوفمان ، صاحب كتاب (الإسلام كبديل) ، وإنما آثرت شهادته ، لأنه رجل واسع

المعرفة ، يعرف الألمانية - لغته الأصلية - والإنجليزية والفرنسية ، وعمل سفيرًا لبلاده - ألمانيا - فى الجزائر والمغرب ، ويتميز بنظرته (الواقعية) ، ونزعته (النقدية) ، حتى قال عن واقعيته : إنها الواقعية القاسية . وقال عن نقده : اضطررت لأن أكون ناقدًا شديدًا لكل من الغرب والعالم الإسلامى .

يقول هوفمان فى كتابه (الإسلام عام ٢٠٠٠) وفى فصله الثانى تحت عنوان (قليل من التفاؤل) :

١ - قد يكون من المفيد أن نفحص العالم كما هو الآن ، فماذا نرى إذا فركنا أعيننا قليلاً ؟ هل يتقدم الإسلام حقيقة ؟ أم أنه - إذا تركنا المظاهر - ينحدر ؟ أو أن المسلمين يترددون على حواف التاريخ ، فريسة سهلة للاستعمار المادى والعقلى ، كما هو حالهم لعدة قرون ؟

دعونا هذه المرة نسمع من المتفائل أولاً :

٢ - يجب على المرء أن يعرف كيف كانت الحال بمكة والمدينة فى القرن السابق ، ليتعرف على التقدم الحادث . لدينا أوصاف يُعتمد عليها من الحجاج الغربيين أمثال : المسلم السويسرى بروكارت الذى عاش فى مكة والمدينة ستة أشهر فى ١٨١٤/ ١٨١٥ [١] ، وقد أيد

---

(١) جوهان لودفيج بروكارت « مكة والمدينة » برلين ١٩٩٤ .

رواية بروكارت كل من المسلم البريطانى سير ريتشارد بيرتون الذى زار مكة والمدينة فى ١٨٥٣ [١] ، والألمانى غير المسلم هيترش فون مالتزان الذى عاش فى مكة فى ١٨٦٠ [٢] .

اتفق المؤلفون الثلاثة على تدهور حالة الأماكن المقدسة . . القذارة ، انعدام الأمن ، انتشار الخرافات . . وصدق أو لا تصدق . . شرب الخمر والدعارة حول الحرم . . بل وحتى داخله أحيانًا !

لم تقم الصلاة بانتظام ، حتى بين الحجاج ، الذى هبط عددهم إلى ٧٠ر٠٠٠ عام ١٨١٤ (حسب تقدير بروكارت) ثم إلى ٣٠ر٠٠٠ عام ١٨٦٠ (حسب تقدير مالتزان) .

وفى الحقيقة ، بعد غزو نابليون لمصر ، وبعد الانهيار والتمزق المتتالى للإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تنبأ الكثير من السياسيين والمستشرقين باختفاء الإسلام تمامًا ، وفى غضون حياتهم ! فدرسوا الإسلام كحضارة على وشك الاندثار ، عليهم أن يسجلوها لأجيال المستقبل . وبهذه الروح ، استطاع المستعمرون الفرنسيون تقدير عبد القادر [٣] ، البطل

---

(١) ريتشارد بيرتون « حكايات شخصية لحاج بالمدينة ومكة » نيويورك ١٩٦٤ .

(٢) هيترش فون مالتزان « حجى لمكة » تونجن ١٩٨٢

(٣) برونو إينه (عبد القادر) ١٩٩٤

الجزائرى ، الصوفى ، رجل الدولة ، كشخصية فلكلورية غريبة ، ذات قليل من الإزعاج ، حتى الشخصيات التى تعاطفت مع الإسلام ، جوتة (١٨٣٢) على سبيل المثال ، أعجبه تشدد الإسلام فى وحدانية الله ، وليس الإسلام كما يعيشه العالم الإسلامى [١] .

٣ - من يحج أو يعتمر اليوم ، يجد التقدم هائلاً عن حالة القرن الماضى ، فقد تم توسيع الحرم المكى والحرم المدنى بجمال واقتدار ليسعا ٤٨٠ر٠٠٠ ، ٦٥٠ر٠٠٠ حاج ، وما زالا صغيرين أمام الزيادة الهائلة لمن يريدون الحج ، والذين يحجون الآن طبقًا لحصص محددة لكل دولة لا تتعداها ، مُنعت الكحوليات ، السرقات قليلة ، النساء لا يدخلن البلاد منفردات ، والصلاة على مدار الساعة أمام أنظار العالم .

٤ - اختلف موقف المستشرقين من الإسلام ، منذ عشرينات القرن الحالى ، وكان ذلك بداية لتغييرات أخرى إيجابية ، فلم تعد دراسة الإسلام على طريقة لورنس العرب لصالح الإمبريالية البريطانية ، بل تولته نخبة من الأكاديميين الأوروبيين ، منهم رينيه جينو (عبد الواحد يحيى) ، مارتن لنج ، تيتوس بروكاردت ، وليوبولد فايس (محمد أسد) . ومن بين المستشرقين الذين لم

---

(١) أحمد ثون دنفر (الإسلام وجوته) ميونيخ ١٩٩٠ ، ١٩٩٤ ، الطبعة الثالثة .

يعلنوا إسلامهم ، هناك چاك بيرك ، لويس مانيون ، ودنيس ماسون، آناماریاشْمل ، الذين بدوا على وشك الشهادة .

وكثير من زملائهم المستشرقين ، تحلوا فى دراستهم الإسلام بروح التعاطف والاعتناق بدلاً من الاشمئزاز والضيق .

وفى نفس الوقت ، منذ الثلاثينات ، وضعت حركات إحياء الإسلام - من القاعدة - فى معظم البلاد الإسلامية ، الإسلام فى الأجندة السياسية للبلد ، ونموذج لذلك حركة الإخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا (١) فى مصر ، ودعاتها من أمثال سيد قطب (١٩٦٦) ، ومحمد الغزالى (١٩٩٦) كذلك أبو الأعلى المودودى (١٩٧٩) .

لم يجئ الإحياء من القاعدة فقط ، فالحركة الوهابية والحركة السنوسية ، وإلى حد ما حركة محمد عبده ، جاءت من أعلى ، وانتشرت بفضل الإمكانيات المادية ، ومن أغنى أغنياء العالم اليوم سلطان بروناى ، والملك فهد ، والأمير زايد ، مما يعطى الدعوة الإسلامية ثراءً فعالاً . فكر - على سبيل المثال - فى ملايين النسخ من القرآن الكريم التى توزع مجانًا ، كذلك فى مجمع فهد لطباعة وتوزيع الكتب الإسلامية فى المدينة .

---

(١) (رسائل حسن البنا) بيركلى ، لوس أنچلوس ١٩٧٨ ، ما زالت مادة رئيسية .

والخلاصة ؛ أن ذلك التطوير ، نُظر إليه كتهديد أصولى ، مما جعل الإسلام يحتل القمة فى ما يشغل الإعلام العالمى فى الربع الأخير من القرن الحالى .

٥ - لا يتوقع اليوم أحد أن يختفى الإسلام ، ولكن أن يمتد ، بل وينفجر ! ويضع جنرالات الناتو فى حسبانهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً فى المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب ، ولكن بين الشمال والجنوب ، فالإسلام هو العدو المتنامى المرتقب .

يرجع بهذا الخوف المسلمون المهاجرون عند عودتهم لبلادهم ، أصبح تعداد المسلمين فى كل من ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بالملايين . وتقدر الإحصاءات الغربية إجمالى عدد المسلمين فى العالم بـ ٩٩٠٫٥٤٧ مليون - وهو رقم متحفظ - يسببون الخوف والهلع (١) .

تنشر المساجد فى العالم كله بين لوس أنجلوس ، روما ، زغرب، حتى موسكو وبكين ، وفى قرطبة الحاضرة القديمة للخلافة الأموية فى الأندلس ، أسس المسلمون الإسبان فى ١٩٩٤ الجامعة الإسلامية الدولية (آفيروس) وليس بعيدًا عن الجامع القديم الرائع

---

(١) انظر : مقالة (عدد المسلمين فى العالم) د . ل / دورية ، هامبورج، فبراير ١٩٩١ ، يقول القرضاوى : والمعروف أن المسلمين فى العالم اليوم أكثر من مليار وربع . ولكن إحصاءات الغربيين أبدًا تحاول التقليل من عدد المسلمين لأسباب لا تخفى على اللبيب .

فى قرطبة ، يرفع الآذان ثانيًا للصلاة ، يا لها من إثارة أن يحدث هذا بعد خمسمائة سنة من طرد آخر مسلم من الأندلس !

٦ - فى التوقعات المستقبلية المذهلة لمحمد أسد (١٤١٢ / ١٩٩٢) فى كتابه الهائل المشهور (الإسلام فى مفترق الطرق) - الذى كتبه فى دلهى عام ١٩٣٤ - تكلم عن صعود الإسلام مقابل انحطاط الحضارة الغربية المادية التى تشمل الاتحاد السوفييتى ، وبمنهاج مخالف لمنهاج السلفيين الاعتذارى والتبريرى أمام الغرب ، بين أن الإسلام منهاج شامل كامل ناجح للحياة .

رأى أسد الحرب العالمية الثانية كصراع لا مفر منه بين القوى المادية فى الحضارة الغربية .

توقع أسد أن يجلب التناحر على المادة الكوارث على المعسكرين الغربى والشرقى ، ويحط بالحضارة الغربية المادية - المملوءة زهوًا بالنفس - حتى يتطلع الغرب - مرة ثانية - إلى الحقيقة الروحية « وتصبح الدعوة الناجحة للإسلام ممكنة » والتأكيد هنا من عندى .

بدت تلك الرؤيا غير دقيقة لمدة ستين عامًا ، فبعد الحرب العالمية الثانية ، بدلاً من أن ينهار الغرب ، انقسم إلى معسكرين ، ظهر أنهما يوازنان بعضهما البعض لعصور قادمة .

واليوم ، بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ ١٩٩٠ ، وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية فى الغرب ، تمر المسيحية بتغيير

فى المشروع ، وما كان يسمى (مشروع التحديث) يتساقط أمام أعيننا .

بدأ منظرو وعلماء الغرب يشكّون إذا كانت افتراضاتهم الأساسية صحيحة أ . هـ [١] .

* * *

● **استمرار حركة الإحياء والتجديد :**

إن من خصائص الإسلام : أن حركة الإحياء والتجديد فيه من الداخل مستمرة ، ولا تنقطع حتى تقوم الساعة ، بوساطة (الورّاث الحقيقيين) لعلم النبوة ، الذين يقدمونه للناس خالصًا غير مشوب ، متكاملاً غير مجزأ ، بيّنا غير غامض (ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) [٢] .

ولا غرو أن هيأ الله لهذا الدين ، رجالاً يجددونه ، ويوقظون أمته، ويصنعون أجيالاً على هداه ، ولم تضع جهودهم سدى ، ولم تذهب ثمرات البعث الإسلامى ، وحركات الإحياء والتجديد ،

---

(١) عن كتاب (الإسلام عام ٢٠٠٠) لمراد هوفمان ترجمه عادل المعلم، نشر دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٥ ص ١٥ - ١٨

(٢) الحديث رواه البيهقى وغيره من عدة طرق ضعيفة ، وقواه ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) ، وقد تكلمنا عنه فى كتابنا : (كيف نتعامل مع السنة النبوية) ص (٢٨) نشر دار الوفاء بمصر .

التى لم تكن - كما توهم بعض الناس - صيحة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، بل أنشأت بفضل الله تعالى وتوفيقه ، صحوة إسلامية كبرى ، فى سائر ديار العرب والإسلام ، بل حتى خارج ديار الإسلام ، حيث الأقليات والجاليات الإسلامية فى الغرب والشرق ، صحوة أيقظت العقول والقلوب ، والعزائم ، وأعادت للناس الثقة بالإسلام ، والأمل فى انتصاره بعد أن ظن من ظن أن راية الإسلام قد سقطت ، وأن ظله قد تقلص ، وأن أمته أمست فى مؤخرة القافلة وأن العلمانية قد تغلغلت بين أبنائه .

وزلزلت القوى المعادية للإسلام زلزالها ، فطفقت تكيد للصحوة ، تتآمر عليها ، وتتهمها بما تبرأ منه ، وتدعو إلى ضده ، مستغلة انحراف بعض فصائل الصحوة - للأسف - فى الفهم أو فى السلوك ، لضرب الصحوة كلها ، وقطع الطريق عليها، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) .

وإذا كان بعض الناس يحاول أن يهون من قوة التيار الإسلامى ، ويقلل من شأن الصحوة الإسلامية ، مهولاً من قوة التيار العلمانى المعادى للإسلام ، وشريعته ومنهجه لقيادة الحياة ، فأعتقد أنهم مخطئون فى تقديراتهم ، أو هم يعلمون الحقيقة ، ولكنهم يتجاهلونها عمداً لهوى فى أنفسهم .

* * *

(١) الأنفال : ٣٠

● الصحوة الإسلامية وآثارها فى الحياة الإسلامية :

لا يستطيع عاقل منصف أن ينكر أثر (الصحوة الإسلامية) فى حياتنا المعاصرة ، تلك الصحوة التى شرقت وغربت ، وأضاءت بنورها ديار الإسلام ، ثم ذهبت إلى حيث يوجد المسلمون خارج أوطان الإسلام ، بين الأقليات الكبيرة والصغيرة ، والجاليات المنتشرة فى أنحاء العالم ، وهدى الله بها ملايين الشبان والشابات .

أيقظت هذه الصحوة العقول بالوعى ، وملأت القلوب بالإيمان والحماس ، ودفعت الإرادات إلى الالتزام والعمل ، وأثرت على النساء كما أثرت على الرجال ، وغيرت من مفاهيم الأجيال الجديدة، فنقلتها من التفكير العلمانى إلى التفكير الإسلامى ، ومن الولاء للغرب إلى الولاء لله ولرسوله ، ومن التبعية إلى التحرر ، فنشأ جيل مسلم ملتزم بالإسلام : عقيدة وشريعة ، وفكرًا وسلوكًا ، ورسالة وحضارة . رجونا أن يكون (جيل النصر المنشود) .

أثبتت هذه الصحوة وجودها على الصعيد الفكرى بما احتوته (المكتبة الإسلامية) المعاصرة من شتى الدراسات فى الجوانب الإسلامية المتعددة ، وكان الكتاب الإسلامى هو الأول فى سوق التوزيع ، وسجلت مئات الأطروحات للماچستير والدكتوراة فى مختلف جوانب الثقافة الإسلامية : فى الاقتصاد والسياسة والقانون والتربية والتاريخ ، وشتى العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السلوكى ، فامتلأت المساجد بالمصلين والمصليات ، وخصوصًا من الشباب ، وازدحمت بهم كذلك مواسم الحج والعمرة ، وعادت المرأة المتبرجة إلى الحجاب طوعًا .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الاقتصادى ، فنشأت البنوك الإسلامية والمؤسسات المالية الإسلامية ، وتوسعت فى أقطار كثيرة من العالم الإسلامى .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السياسى ، فأصبح هناك تيار شعبى هائل ، ينادى بالعودة إلى الإسلام ، وتطبيق شريعة الإسلام ، وقامت دولة للإسلام الشيعى فى إيران ، وللإسلام السنى فى السودان ، وأوشكت أن تقوم دولة فى الجزائر ، لولا أن قطعوا الطريق عليها ، وحرموها أن تقطف ثمار اختيارها .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الجهادى ، فانتصرت فى أفغانستان على الاتحاد السوفيتى [1] ، وفى البوسنة والهرسك على الوحش الصربى ، وزلزلت الانتفاضة وأشبالها ، والمقاومة الإسلامية ورجالها ، الكيان الصهيونى : الدولة التى لا تقهر ، والشوكة التى لا تكسر !

---

(١) ولكن مما يؤسف له : أن إخواننا الأفغان ، قد انتصروا على الاتحاد السوفييتى - إحدى القوتين الكبريين فى العالم - ولكنهم لم ينتصروا على أنفسهم ! هداهم الله وأصلح ذات بينهم .

هذه الظواهر وغيرها حركت غرائز الشر فى القوى المعادية للإسلام وأمته وصحوته ، فاجتمعت على الكيد له ، والمكر به ، والتربص بصحوته ، وقد قال إسحاق رابين فى مؤتمر الدار البيضاء: إن أعداءنا الكونيّين ثلاثة : الأصولية ، والجوع ، والمخدرات ! والحقيقة أنه ذكر الجوع ، والمخدرات للتغطية وذر الرماد فى العيون ، وإنما قصده الأساسى : الأصولية ، وإن شئت الترجمة الحقيقية لها فهى (الصحوة الإسلامية) !

وإذا كنا نعيش فى الزمن الإسرائيلى ، زمن السامرى ! وإسرائيل هى الآمر الناهى فى المنطقة ، وقد عملت بمهارة على (تهويد العقل العربى) وكذلك (تهويد الإعلام العربى) فلا تعجب إذا رأيت الحرب تعلن على الصحوة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، والحركة الإسلامية ، تحت عناوين شتَّى ، وكل ذلك لخدمة هدف واحد ، هو : بقاء إسرائيل ، وسيادة إسرائيل ، وتوسع إسرائيل ، وهيمنة إسرائيل ، ولكن الصحوة باقية إن شاء الله .

* *

● التيار الإسلامى أقوى وأرجح فى الميزان :

أجل إن الصهيونية - وحليفتها الصليبية - تخططان لضرب الإسلام وصحوته ، وتمدان التيارات المعادية للإسلام بكل أسباب القوة والانتشار والنفوذ .

ولكننا إذا تعمقنا فى تقدير وزن القوى التى لنا والتى علينا ؛ وجدنا كفة التيار الإسلامى - بحمد الله - أرجح وأثقل فى الميزان .

(أ) فنحن بالإسلام نملك رصيدًا ضخمًا ، لا يمكن أن تملكه دعوة أخرى وافدة من هنا وهناك ، إن وراء الإسلام (قوة الجماهير) الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها ومحمّدها ، المتطلعة إلى من يقودها باسم الله ، ويضع يدها فى يد رسول الله ﷺ وعندئذ تبذل المال عن رضا واغتباط ، والروح عن طواعية وارتياح . إن هذه الأمة متدينة بفطرتها ، وبتاريخها ، والدين هو مفتاح شخصيتها ، وصقل مواهبها ، وصانع بطولاتها ، وسر انتصاراتها الكبرى ، وهى أسرع استجابة إليه ، والتفافًا به ، من أى دعوة دخيلة جاء بها غاصب ، محتل ، أو بذر بذورها طامع متربص .

وقد جربنا أثر ذلك فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ (٦/ ١٠/ ١٩٧٣) م ، وظهر أثر (الله أكبر) فى الميدان .

(ب) ونملك كذلك (قوة المنهج) الذى ندعو إليه ، قوة مبادئ الإسلام العظيمة الخالدة ، نملك (قوة الإسلام) التى تتمثل فى وضوحه وشموله ، وعمقه ، واتزانه وتأثيره . الإسلام : عقيدةً تخاطب العقل ، وعبادةً تزكى النفس ، وأخلاقًا تلائم الفطرة ، وأحكامًا تحقق التوازن والعدل ، تطارد المفاسد ، وتجلب المصالح ، وتعطى كل ذى حق حقه ، فلا طغيان لفرد على مجتمع ، كما هى

فلسفة الرأسمالية ، ولا لمجتمع على فرد ، كما هى فلسفة الماركسية ، بل توزان وتكامل ، بلا طغيان ، ولا إخسار فى الميزان .

ومن أبرز معالم القوة فى هذا الإسلام : أنه ليس من وضع البشر، بل هو من تنزيل رب العالمين ، وهذا العنصر الإلهى فيه جعله يبرأ من الغلو والتقصير ، ومن العجز والقصور ، الذى يصاب به دائمًا كل منهج يضعه البشر لأنفسهم .

وهذه الميزة أيضًا تجعله أدنى إلى القبول والإذعان له من جمهرة الناس ؛ لأنه انقياد من الإنسان لربه ، الذى خلقه فسواه ، وأمده بنعمته ، وغمره برحمته ، والذى يرجو مثوبته ، ويخشى عقابه ، على عكس المبادئ الوضعية ، التى لا يطيعها الإنسان إلا خوفًا أو طمعًا ، والتى يحاول أن يتهرب من سلطانها ما استطاع .

ومن أسباب قوة الإسلام : أنه منهج نابع من أعماق الأمة ، وليس دخيلاً ولا طارئًا عليها ، بحيث تحتاج إلى ضغط مادى ، أو معنوى حتى تسيغه وترضى بتجرع كأسه .

(جـ) إن هذه القوة المذخورة فى منهج الإسلام ، لا يعادلها إلا القوى المكنونة فى حنايا أمة الإسلام .

تلك القوى التى انفجرت يومًا والمسلمون فى ضعف وتفرق وخذلان ، فحطمت الصليبيين فى (حطين) ، وهزمت التتار

فى (عين جالوت) ، وأسرت لويس التاسع فى (دار ابن لقمان) بالمنصورة . .

* *

● القوى التى تملكها الأمة :

إن القوى التى تملكها أمتنا الإسلامية ليست بالهينة ولا اليسيرة ، إذا أحسنت توظيفها والاستفادة منها ، فهى فى الحق قوى كبيرة وهائلة .

١ - القوة البشرية :

أولى هذه القوى : القوة البشرية العددية ، فأمتنا تملك اليوم من البشر ما يزيد على المليار والربع من المسلمين المؤمنين بعقيدة التوحيد ، منتشرين فى قارات العالم الست .

صحيح أن العبرة بالكيف لا بالكم ، ولكن الكم له أهمية أيضًا ، وسنرى فى تقارير الغربيين كيف يخافون من تزايد أعداد المسلمين ، فى حين يعانون هم منذ مدة من تناقص النسل عندهم بصورة أصبحت تفزعهم .

إن الكثرة فى حد ذاتها نعمة ، وهى شرط لا بد منه لأى تفوق اقتصادى أو حضارى ، ولهذا تسعى الأُمم إلى تعويض هذا بالتكتل فيما بينها رغم اختلافها فى العروق واللغات والأديان ، والتاريخ .

ومن هنا ذكر القرآن فى معرض الامتنان والإنعام قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُم قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ (١) .

والشاعر العربى يقول : وإنما العزة للكاثر !

والشاعر الآخر يقول فى مقام الفخر بكثرة قومه :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحرَ نملؤه سفينًا !

٢ - القوة المادية والاقتصادية :

وثانية هذه القوى : القوة المادية والاقتصادية ، فأمتنا تملك من المعادن والثروات المذخورة فى باطن الأرض ، والثروات المنشورة على ظاهرها ، والثروات المائية والبحرية ، ما لا تملكه أمة أخرى .

عندنا الأراضى الخصبة من السهول والوديان ، وعندنا الهضاب والجبال ، وعندنا البحار والبحيرات ، والأنهار العظام ، وعندنا العيون والآبار ، وعندنا مخزون المياه الجوفية ، وعندنا المعادن المهمة التى يحتاج إليها العالم ، ويكفى أن لدينا معظم مخزون العالم من النفط .

وموقعنا الجغرافى كذلك له قيمة كبيرة : استراتيجية وحضارية ، فهو ملتقى القارات ومنبع الحضارات ، ومهبط الرسالات السماوية الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام .

---

(١) الأعراف : ٨٦ .

٣ - القوة الروحية :

وثالثة هذه القوى التى تملكها أمتنا : القوة الروحية ، قوة الرسالة التى تؤمن بها ، وتدعو إليها ، وتحيا لها وتموت عليها : رسالة الإسلام العامة الخالدة ، التى ختم الله بها النبوات والرسالات .

فهى الرسالة التى تميزت بالربانية ، فمصدرها الله ، وغايتها إلى الله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

نحن المسلمين وحدنا الذى نملك الوثيقة الإلهية الوحيدة التى تتضمن كلمات الله الأخيرة للبشرية ، سالمة من كل تحريف وتبديل : القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وتميزت هذه الرسالة كذلك بالنظرة الشمولية : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٢) .

وتميزت بنزعتها الأخلاقية ، حتى قال نبيها : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٣) .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ (٢) النحل : ٩٠

(٣) رواه عن أبى هريرة : البخارى فى الأدب المفرد بلفظ : (صالح الأخلاق) رقم ٢٧٤ ، أحمد : ٢/ ٣٨١ ، الحاكم : ٢/ ٦١٣ ، وصحَّحه ووافقه الذهبى ، وذكره الألبانى فى الصحيحة برقم ٤٥ .

وتميزت بنزعتها الإنسانية والعالمية : ﴿ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وتميزت بنظرتها الواقعية ، فشرعت للضرورات أحكامها ، وقدرت للإنسان أعذاره ، وشرعت الرخص والتخفيفات .

وتميزت بخصيصتها الوسطية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (٢) ، فهى توازن بين المادة والروح ، بين العقل والقلب ، بين الدنيا والآخرة ، بين الحقوق والواجبات ، بين الفرد والمجتمع ، بلا طغيان ولا إخسار .

والعالم أحوج ما يكون إلى هذه الرسالة ، لتنقذه من المادية المسرفة ، ومن النفعية المجحفة ، ومن الإباحية القاتلة ، ومن عصر الخوف والقلق والاكتئاب واليأس إلى عصر الأمن والسكينة والبهجة والأمل .

* *

• تحذيرات الأجانب من القوة المذخورة فى الإسلام وأمته :

إننا نحن المسلمين قد نجهل القوى المذخورة لديننا ، ولكن الأجانب الدارسين لطبيعة أمتنا ، ومذخور الطاقات فى شعوبنا ،

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) البقرة : ١٤٣

هم الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية ، يحسبون لها ألف حساب ، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها يومًا من الأيام ، يقول البروفسور « جب » فى كتابه : (وجهة الإسلام) : (إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة ، فهى تنفجر انفجارًا مفاجئًا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة فى أمرها ، إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة ، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد) .

وكتب الرحالة الألمانى (بول أشميد) كتابًا خاصًا بهذا الموضوع سماه : (الإسلام قوة الغد) ظهر سنة ١٩٣٦ م ومما قال فيه : إن مقومات القوى فى الشرق الإسلامى ، تنحصر فى عوامل ثلاثة :

١ - فى قوة الإسلام (كدين) وفى الاعتقاد به ، وفى مثله ، وفى مؤاخاته بين مختلفى الجنس واللون والثقافة .

٢ - وفى وفرة مصادر الثروة الطبيعية فى رقعة الشرق الإسلامى الذى يمتد من المحيط الأطلسى ، على حدود مراكش غربًا إلى المحيط الهادى ، على حدود أندونيسيا شرقًا ، وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتى ، لا يدع المسلمين فى حاجة مطلقًا إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا .

٣ - وأخيرًا أشار إلى العامل الثالث وهو : خصوبة النسل

البشرى لدى المسلمين ، مما جعل قوتهم العددية قوة متزايدة[١] .

ثم قال : (فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث ؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة ، وتوحيد الله ، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم ؛ كان الخطر الإسلامى خطرًا منذرًا بفناء أوروبا وبسيادة عالمية فى منطقة هى مركز العالم كله) .

ويقترح (بول أشميد) هذا - بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية ، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية ، كما تبلورت فى تاريخ المسلمين ، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم - أن يتضامن الغرب المسيحى شعوبًا وحكومات ، ويعيدوا الحرب الصليبية فى صورة أخرى ملائمة للعصر ، ولكن فى أسلوب نافذ حاسم [٢] .

وقال (روبرت بين) فى مقدمة كتابه الذى سماه : (السيف المقدس) : (علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم ؛ لأنهم حكموا العالم سابقًا ، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى ، والشعلة التى أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة ، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ ، ولهذا كتبت هذا الكتاب لكى يقف

---

(١) ليسمع ذلك دعاة تحديد النسل بإطلاق فى العالم الإسلامى !

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهى فى إحدى محاضراته .

القراء على أصل العرب ، وسميته باسم السيف ذى النصلين الذى ناله محمد فى وقعة بدر تذكارًا لانتصاره ؛ لأن السيف أصبح رمزًا لمطالبه الإمبريالية) [1] .

وبغض النظر عما فى هذا الكلام من تحامل ، وما يغلى به من حقد ، فهو يبين لنا مبلغ قوى المسلمين فى نظر الأجانب عنهم ، وهم اليوم يسمعون الإسلام (الخطر الأخضر) بعد أن زال (الخطر الأحمر) بانهيار الاتحاد السوفيتى ، وبعد أن تقاربوا مع (الخطر الأصفر) المتمثل فى الصين ، والإسلام ليس خطرًا إلا على الإلحاد والفساد والإنحلال والاستعباد .

واسمح لى أن أسوق لك مثلاً معاصرًا على القوة الذاتية فى هذا الإسلام ، ذلك المثل هو (تركيا) . تركيا التى أراد أتاتورك وحزبه أن يعرُّوها من لباس الإسلام وأخلاقه وتقاليده وأحكامه ولغته وكل ما يمت بصلة إليه ، حتى ألغى غطاء الرأس ، وحتى الكتابة بالحرف العربى ! فقد جعل غطاء الرأس إجباريًا هو القبعة ، وجعل حروف الكتابة هى اللاتينية ، منع الكلام بالعربية ولو فى الأذان ! وأباح للمسلمة أن تتزوج اليهودى أو النصرانى ، وسوى بين الذكر والأنثى

---

(١) ص ١٧ من الكتاب بالإنجليزية ، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إسحاق موسى الحسينى عن هذا الكتاب ، قدمه إلى الإدارة العامة للثقافة بالأزهر فى أواخر الخمسينات .

فى الميراث ، وجعل القوانين كلها غربية لحمًا ودمًا وعظمًا ، حتى القوانين التى تسمى (الأحوال الشخصية) وطوردت الثقافة الإسلامية والعربية ، وحورب أهلها بل قوتلوا وقتلوا ، وظن الناس أن شمس الإسلام قد غربت عن تركيا إلى الأبد ، وإن ظل الإسلام قد تقلص عنهم إلى غير رجعة ، ومرت على ذلك عشرات من السنين جاءت راكدة ، كفيلة بأن تميت الإسلام فى الصدور ، وأن تدب معها عقارب اليأس إلى القلوب .

ولكن الإسلام الكامن فى صدور الشعب التركى لم يمت . يمكن أن تقول أنه ركد أو نام ، حتى واتته الفرصة فظهر قوة مؤثرة . ولم نزل نقرأ ونسمع عن امتداد قوة التدين هناك ، وانكماش الإلحاد والإباحية ، وخفض صوتهما يومًا بعد آخر ، رغم ما لديهما من إمكانات مادية وأدبية ، وما يلقى دعاتهما من مساعدات داخلية وخارجية . وظهرت المدارس القرآنية بالألوف ، وعادت المساجد تبنى ، والكتب الإسلامية تنشر ، والتوجهات الإسلامية تظهر وتؤثر فى الحياة .

ولقد أدت انتفاضة الدين فى تركيا أخيرًا إلى حصول (حزب الرفاه) الإسلامى على الأغلبية النسبية فى البرلمان التركى ، رغم العقبات التى توضع فى طريقه .

إن آية الآيات فى هذا الدين وأثره فى أمته ، ما ذكرناه من قبل : أنه أشد ما يكون قوة وأعظم ما يكون رسوخًا وشموخًا ، حين تنزل

بساحته الأزمات ، وتحدق به الأخطار ، ويشتد على أهله الكرب ، وتضيق بهم المسالك ، ويقل المساعد والنصير .

حينئذ ، يحقق هذا الإسلام معجزته ، فتنبعث الحياة فى الجثمان الهامد ، ويتدفق دم القوة فى عروق الأمة ، وينطلق جنود الحق انطلاقه المارد من القمقم ، فإذا النائم يصحو ، والجبان يتشجع ، والضعيف يقوى ، والشارد يعود ، والشتيت يتجمع ، وإذا هذه القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك ، تكوّن سيلاً عارمًا لا يقف دونه حاجز ولا سد من السدود [1] .

* *

● **محن الدعاة** :

أما اعتراض البعض بالمحن الشداد التى تصب على رؤوس الدعاة إلى الإسلام ، والضربات القاسية التى تنهال عليهم من هنا وهناك ، فمن ذا الذى يأمل أن تقوم لهؤلاء المضطهدين المشردين المعذبين قائمة ؟ أو يرتفع لهم علم ؟ ، أو ينتصر فى الناس نظام يدعون إليه، ورسالة يؤمنون بها ، وهم فى كل يوم بين المطرقة والسندان ؟

فنقول لهؤلاء المعترضين أو المتوجسين :

إن هذه المحن التى تذكرونها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة الإسلام ، بل هى دليل حياة وحركة وقوة ، فإن الميت الهامد لا يُضرَب ، ولا يؤذَى ، إنما يضرب ويؤذى الحى المتحرك المقاوم .

---

(١) انظر كتابنا (من أجل صحوة راشدة) ص ١٠٤ ، ١٠٧ .

إن الدعوة التى لا يضطهد أصحابها ، ولا يؤذى دعاتها : دعوة تافهة أو ميتة ، أو دعاتها - على الأقل - تافهون ميتون .

ثم إن هذه المحن والاضطهادات برهان على حيوية المبدأ نفسه ، مبدأ الإسلام ، فهو يقدم كل حين شهداء فى معاركه ، يروون شجرته بدمائهم ، ويبنون صرح مجده بأشلائهم .

وهذه المحن أبلغ معلم ، وأعظم مرب ، لأصحاب الدعوات ، باعتبارهم أفرادًا ، تصفو أنفسهم بالشدة ، وتتمحص قلوبهم بالممحنة ، وقد جاء فى الحديث .

« مثل المؤمن حين يصيبه الوعك أو الحمّى ، كمثل الحديدة تدخل النار ، فيذهب خبثها ، ويبقى طيبها » (١) .

وحسبنا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) رواه البزار كما فى كشف الأستار ، من حديث عبد الحميد بن عبد الرحمن بن أزهر ، عن أبيه : ١/ ٣٦٢ (٧٥٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع : (٢/ ٣٠٢) : رواه البزار والطبرانى فى الكبير وفيه من لا يعرف . ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبى : ١/ ٧٣ ، ٣٤٨ ، وتعقبهما الألبانى ، وأثبت أن إسناد الحديث حسن ، وهو صحيح بما له من شواهد معروفة ، الصحيحة : ٤/ ٠ ، ٢٩١ (١٧١٤) .

(١) آل عمران : ١٣٩ - ١٤٠